الوعد والمنعطف: مقتدى الصدر، الراديكالية الشيعية والاحتلال الأمريكي للعراق (3)

الحرب التي شنها الصدريون ضد البعث وعمليات التصفية قادتهم دون وعي للانخراط العملي مع الاحتلال مع سقوط بغداد صعدت صورة الشيخ في مخيلة مناصريه كزعيم يجمع شرعية التمثيل الديني والمقاومة

فاضل الربيعي*

في هذه الدراسة الجديدة يعرض الباحث والمفكر العراقي فاضل الربيعي تصوره لمستقبل التيار الصدري في العراق، ويتناول الأسس والمنطلقات الفقهية والفكرية والسياسية التي قام عليها بعد التاسع من نيسان (إبريل) 2003. وإذ يلاحظ الباحث أن هذا التيار يجمع بين مقاومة الاحتلال ومواصلة سياسات تصفية حزب البعث في الآن ذاته؛ فإنه يتكهن بإمكانية حدوث انقسام خطير قد يدمر الأسس التي قام عليها. كما أن عجزه عن حسم التناقض الجوهري ضد الاحتلال، قد يفضي به إلى التحالف مع القوى والجماعات التي ارتطم بها في سياق تطوره.

«القدس العربي»

مقاربة أولى

يبدو تيار الصدر بالنسبة لمعظم العراقيين، وحتى المخاصمين منهم لأفكاره وشعاراته والتكتيكات التي ينتهجها؛ متأرجحا بين ثلاث استراتيجيات تتجاذب أفراده وقادته الدينيين والسياسيين في الميدان:

مقاومة الاحتلال الأمريكي من جهة، ومواصلة الصراع ضد حزب البعث من جهة أخرى، وأخيرا الصراع ضد المؤسسة الدينية (الحوزة).

اثنتان من هذه الاستراتيجيات الثلاث، كانتا من بقايا حرب قديمة ومن مخلفاتها، سبق لمؤسس التيار وقائده الروحي الصدر الثاني (محمد صادق الصدر والد الشيخ مقتدى) أن خاضها بضراوة ضد عدوين لدودين، وتركت في أسرته ومريديه وطلابه وأنصاره تأثيرا مذهلا، وإلى الدرجة التي حملت الصدر الابن نفسه، وعلى الرغم من صغر سنه ونقص تجربته الحياتية وتبدل الظروف وتغير مسرح المعارك؛ على مواصلتها والاندفاع في قلب أوارها الملتهب دون هوادة؛ وكأن قدره هو أن يواصل إضرام النيران أو أن ينفخ في الرماد، أو أن يواصل على خطى والده الشهيد، التفتيش عن العدوين القديمين حتى مع تلاشي أحدهما عن المسرح، وحتى مع انزواء وارتباك الخصم الآخر وربما إحجامه عن الرد على التحدي.

هاتان الاستراتيجيتان اللتان ورثهما الصدر الابن، وواصل العمل بهما حتى بعد وقوع الاحتلال بفترة وجيزة، أي الصراع ضد المؤسسة الدينية الاستبدادية (المرجعية التقليدية في النجف) ومناهضة البعث، كادتا في الكثير من الأحيان أن تحجبا المحتوى الحقيقي لمواقف التيار من الاحتلال الأمريكي. ولذلك تبلورت استراتيجية الصدر منذ التاسع من نيسان (إبريل) 2003 ومع بزوغ عدو جديد غير متوقع، على أساس الربط (وربما الخلط) بين:

1. مقاومة الاحتلال الأمريكي سياسيا وعسكريا (من خلال تشكيل جيش المهدي كذراع عسكرية للتيار).

2. مواصلة النزاع ضد شرعية المؤسسة الدينية (الحوزة) في النجف، وذلك عبر الدفع بالتنافس الفقهي إلى الواجهة، ومن خلال حملة التشكيك الهائلة التي قادها رجال دين شباب، بشرعية القيادة الدينية التقليدية وأهليتها (ما يعرف بالتنافس بين الحوزة الصامتة والحوزة الناطقة).

3. الاستمرار في مناهضة البعث، وهذه قادت الصدريين ومن دون أن ينتبهوا، إلى الانخراط ـ عمليا ـ مع الاحتلال وعملائه في مشروع تصفية البعثيين، في إطار القانون المريع (اجتثاث البعث) الذي سنته إدارة الحاكم المدني بول بريمر، وشكل أحمد الجلبي هيئته الحكومية المعروفة حتى اليوم باسم (هيئة اجتثاث البعث).

هذا الخلط المريع في الأهداف، والفشل في التمييز بين المهام المطروحة، والتعامي عن رؤية المخاطر الناجمة عن السياسات الهوجاء وغير المتبصرة، هي الدعامة الكبرى للرؤية الزائفة التي ستؤدي، تاليا، إلى ظهور سلسلة من الالتباسات والشكوك، وتضع التيار برمته أمام جملة من المشكلات والأسئلة؛ إذ لم يكن مفهوما، مثلا، حتى بالنسبة لنقاد البعث، الكيفية التي جمع فيها الصدريون بين معاداة الاحتلال والاشتراك معه، في الوقت ذاته، في عملية تصفية البعث؟ فهل كان تيار الصدر يمثل من هذا المنظور، نوعا من تواصل أو استطراد، ولكن بوسائل وأدوات جديدة، مع إرث سياسي وفقهي تجاوزته الأحداث؛ بل وتآكلت بفعل ظروف معقدة، قوة زخمه خصوصا بعد استشهاد الأب وافتقار الوريث لقوة الحضور الديني؟ وربما افتقاره لمبررات الاستمرار في حرب، كانت تتجلى يوما إثر يوم، كحرب مزدوجة فقهية وسياسية باهظة الأثمان، لأنها تدور على جبهتين متعارضتين أصلا: جبهة المؤسسة الدينية و جبهة النظام؟ أم أن ظهور عدو آخر، من خارج الحدود هذه المرة، أي الغزو الأمريكي، هو العامل الخفي ولكن الحقيقي الذي أحيا آمال الوريث بإمكانية تنشيط تيار والده وإعادة إحيائه في شروط جديدة ؟ وهل كان ممكنا لهذا التيار أن يظهر على السطح، أو أن يكسب جمهورا واسعا ومتعاطفا من خارج الطائفة الشيعية أو أن يحافظ على وجوده الرمزي لولا وقوع الغزو الأمريكي ؟

وفي هذا السياق ثمة سؤال آخر موازٍ يتضمن الفرضية الخيالية التالية:

ماذا لو أن الأمريكيين امتنعوا عن غزو العراق في آخر لحظة، وبالتالي لم تسقط بغداد في قبضتهم ؟ لو افترضنا مسارا آخر للأحداث التي وقعت، وتخيلنا وقوع المعجزة في آخر لحظة حيث تخلى الأمريكيون عن مشروع الغزو، فهل كان الصدريون سيظهرون في الشارع على النحو ذاته من القوة؟ وهل ستكون لموضوعات الصراع الصدري مع المؤسسة الدينية ومناهضة البعث أي قيمة فعلية ؟ هل يعني هذا أن التيار الصدري كان ثمرة مباشرة لمعركة داخلية مزدوجة ضد المؤسسة الدينية والدولة، وأن هذه المعركة لم تعد محتدمة، أو لنقل لم يعد لها من وقود كاف خصوصا بعد أن فقدت مبرراتها وأسباب استمرارها في ظل حرب كبرى من الخارج؟

لقد فرض ظهور عدو هائل الجبروت في أرض العراق، على العراقيين المنهكين واليائسين من عدالة العالم، خوض معركة كبرى غير متوقعة مع أهدافه ومخططاته، ثم أرغمتهم نتائج الغزو على مواجهة أوضاع وظروف حياتية شديدة البؤس، ولا سابق لها في تاريخ الحملات الكولنيالية الكلاسيكية. ولكنه فرض على الصدريين ظروف قتال ومواجهة لا يملكون من فنونها سوى القليل. وهكذا؛ قام الأمريكيون في سياق الغزو وأهدافه، بمحو واحد من العدوين اللدودين لتيار الصدر من الوجود كليا (الدولة) بينما فرضوا على العدو الثاني أي المؤسسة الدينية (الحوزة) الصمت والتصرف بجبن؟ وبالتالي؛ فإن تيار الصدر وجد في الاحتلال لا عدوا عظيما يقارعه وحسب؛ وإنما عدوا، يقوم بالنيابة عنه ولمصلحته المباشرة بما كان يعجز عن القيام به بمفرده، وهذا حقيقي تماما من منظور المصالح المباشرة. ومن المحتمل أن هذا الأمر لم يكن بإرادة المخططين للغزو العسكري؛ الذين لم يكونوا يدركون ـ بكل تأكيد ـ تعقيدات الموديل العراقي. كان من نتائج محو الدولة وتخاذل المرجعية في النجف أمام الغزو والاحتلال، أن نشأت أمام الصدريين بيئة نضالية ملائمة ومثالية، خلت للتو من أشباح خصومهم التقليديين وأطيافهم، ليترعرع تيارهم عندئذ (دون خوف من الدولة ودون تنافس محموم مع المؤسسة الدينية ذات هذه المرة) وليغدو بسرعة غير متوقعة قوة جماهيرية بلا منافسين حقيقيين تقريبا في الميدان. لقد جاء العدو ليقوم بما عجز عنه التيار أو حلم به: تحطيم دولة البعث وحزبها الحديدي، وفي الوقت ذاته، إرغام رجال الدين التقليديين في النجف على الانكفاء والتراجع وربما الصمت. وتلك كانت ضالة الصدر الابن وفرصته الذهبية لإحياء ميراث والده.

السؤال الآنف قد يبدو خياليا؛ فالأمريكيون قاموا بالغزو أخيرا، ومجرى التاريخ كان من القوة بحيث أنه جرف من أمامه كل فرضية من هذا النوع. لقد جرت في النهر مياه كثيرة اختلطت بالدم. ومع ذلك فإن السؤال يتضمن حاجة ملحة للكشف عن الدوافع والظروف التي وقفت خلف انطلاق التيار بقوة؛ وما إذا كان الغزو أدى، في بعض نتائجه المباشرة، إلى تنشيط قوى في المجتمع العراقي ما كان لها أن تنشط بهذا القدر من الزخم الشعبي، لولا أن الظروف التي خلقها الغزو هي التي هيأت، ويا للمفارقة، متطلبات مواجهته في ميدان مفتوح. في الواقع؛ نجم عن اختفاء الصدر الثاني (الأب) عن المسرح1، تلاشي مبررات الصراع دفعة واحدة، لا ضد الركيزة الكبرى الأولى التي قامت عليها فكرة الصراع ، نعني نقد المؤسسة الدينية في النجف والطعن في شرعيتها، وبالطبع على قاعدة النزاع الفقهي على جملة من المسائل التي تخص العلاقة بين جمهور الشيعة والقيادة الدينية؛ بل وكذلك ضد الركيزة الكبرى الثانية، نعني نقد البعث ومعارضة حكمه؛ فعلى الجبهة الأولى لم يكن بمقدور الصدر (الابن) الاستمرار في حرب فجرها والده وكانت تدور في إطار الفقه الديني، لأنه ببساطة لا يتمتع بالمكانة نفسها التي تمتع بها والده الشهيد ، فهو ليس من آيات الله كما أنه لا يستطيع حشد قوى دينية حقيقية من خلفه، مؤثرة وحاسمة في الصراع ضد المؤسسة (الديكتاتورية) . إن القصيدة التي ألقاها أحد طلاب العلم وامتدح فيها الشيخ الصدر وعده من بين العلماء، وأثارت حفيظة أحد المجتهدين وإلى الحد الذي كال فيه الشتائم للشيخ وأسرته كما تقول صحيفة (الحوزة الناطقة)2 تكشف عن البُعد الذي اتخذه الصراع ضد المرجعية، التي لم تكن لتعترف بمكانة الشيخ وبمنزلته الدينية، فهو صغير السن وقليل العلم بالنسبة لها. هذا العيب يمكن أن يُرى بوصفه موضوعا جديا للطعن. بينما على الجبهة الثانية أي جبهة النظام؛ فقد تبين، بعد وقت قصير من استشهاد الصدر الأب أن الركيزة الاستراتيجية التي قام عليها مشروعه السياسي، والتي استمدت عقيدتها المبسطة من النقد اليومي اللاذع لسلوك السلطة، إنما باتت، بالفعل، أقل قابلية على النهوض بعبء معركة غير متكافئة ومحفوفة بالمخاطر، بالنسبة لشاب لم تكن له لا الخبرة السياسية ولا الحنكة ولا الأنصار. كما أن قصّة استشهاد والده شابتها منذئذ، كثير من الالتباسات وذلك مع ظهور أدلة على أن لا مصلحة للسلّطة في مصرعه وأن ثمة أيادي خَفية، ربما جاءت من وراء الحدود قد تكون هي صاحبة المصلحة الفعلية في اختفائه وتغييب دوره. على هذا النحو، وقبيل وقوع الغزو الأمريكي بقليل، بدا أن الصدر الابن إنما يفتقد إمكانية استخدام هاتين الاستراتيجيتين القديمتين، وأنهما كانتا في حالة تآكل وتفسخ حقيقيين، فلا هو قادر على مواصلة الحرب الفقهية ضد أعتى مؤسسة دينية في العراق، ولا هو قادر على إبطال فتاواها أو تفنيد اجتهاداها، وبالطبع ما كان بوسعه مواصلة الصراع مع نظام قوي ودولة كانت تبسط نفوذها في كل شارع وزقاق.

لكن؛ ومع بزوغ عدو جديد وظهوره فوق خشبة المسرح صبيحة التاسع من نيسان (إبريل)، بدا أن ثمة ظروفا مواتية، أكثر مما كان عليه الحال قبل أشهر أو سنوات؛ سوف تؤدي إلى توفير فرص مثالية وجديدة أمام الصدر للاستمرار على خطى والده في الاشتباك مع الخصمين اللدودين (اللذين كانا متناقضين في المصالح والأفكار على أية حال وبحيث يستحيل أن يجتمعا ضده). أي ضد الدولة من جهة، وضد شرعية المؤسسة الدينية من جهة أخرى. بهذا المعنى فقط، وليس بأي معنى آخر، جاء الاحتلال الأمريكي للعراق ليضع الصدريين الشباب وجها لوجه، أمام مهمة الاستمرار في هاتين الاستراتيجيتين، وكأن صراعهم الجديد ليس أكثر من استطراد وتواصل بوسائل جديدة لحرب كبرى رسمها القدر وحدد تخومها على ثلاث جبهات. بيد أن مواصلة الحرب القديمة المستعرة مرة أخرى، ولأجل أن تكون مفهومة ومقبولة وجماهيرية في الظروف المغايرة، التي أصبح فيها الاحتلال قوة مسيطرة ومهيمنة على كل مظاهر الحياة؛ ولأجل أن تفضي إلى نتائج فاعلة على صعيد اجتذاب فئات اجتماعية أخرى؛ تطلبت لا إطلاق شعارات أو تسيير تظاهرات احتجاجية هنا وهناك وحسب؛ بل إطلاق مبادرة واضحة من الصدر نفسه، يعلن فيها بأن معركته الكبرى باتت الآن مع الاحتلال. لقد كان هذا التوجه المُلهم واضحا منذ الأيام الأولى، عندما بدا أن صعود تيار الصدريين يرتبط بنزعة ثورية وطنية لمقاومة الاحتلال، وتأجيل أي معارك جانبية خيضت في الماضي.

في أعقاب هذا الإعلان، أصبح من المؤكد أن الصدريين سوف يشتبكون مع جماعات شيعية منافسة ومسلحة ارتبطت بالاحتلال أو جاء فرسانها على ظهور دبابات إبرامز (إبراهيم). وابتداء من نهاية أيار (مايو) 2003 بدأت حملة تشهير لا سابق لها، مصحوبة بأقذع أنواع الشتائم، دبرها وقادها تحالف مركب قوامه جهاز المخابرات الإيرانية (اطلاعات) وفيلق بدر وجماعات شيعية منافسة أخرى انصبت على الزعم القائل إن التيار الصدري ليس سوى حزب البعث نفسه الذي تخفى أعضاؤه خلف واجهات دينية؟ ومما فاقم من شدة الضغط أن الشيخ مقتدى الصدر سارع إلى صد التهمة عن نفسه ومن دون مسوغات مقبولة إلى إطلاق سلسلة شعارات مناهضة للبعث، بالتلازم مع الإعلان بان تياره سيقف وعلى طول الخط ضد القوات الغازية؛ ولكن من غير أن يتوقف لحظة واحدة عن التأكيد، على أنه، وهو يخوض هذه المعركة؛ سيواصل حرب (والده الشهيد) ضد المؤسسة الدينية. وعندئذ اختلطت المهام الثلاث بصورة يصعب تفكيكها. فهل يصح القول إن تيار الصدر، ونظرا لانشداده بقوة إلى ماضي العلاقة السلبية مع السلطة، وانغماسه في النزاع ضد المرجعية في النجف، لم يكن يتمثل تمثيلا كافيا، ولم يعبر بدقة كافية أيضا، عن التطلع والحاجة إلى رسم هدف مركزي أكثر ثباتا، أي مواجهة الاحتلال؟ وأن هذه المواجهة لم تكن سوى الغطاء الضروري واللازم للاستمرار في الحرب القديمة مزدوجة الطابع؟ وهل كان تيار الصدر، في الأصل، نتاج صراع داخلي سيظل أسيرا له، ضد الدولة وضد المؤسسة الدينية، وأن وقوع الاحتلال الأمريكي أرغمه وحسب، على توسيع نطاق معركته ؟ أم أن المعركة ضد الاحتلال هي معركة جذرية وحقيقية، وهي الأساس في تبلور خيارات هذا التيار، وأن الاستمرار في النزاع، لا يمثل، من هذه الناحية، سوى محاولة لاجتذاب فئات جديدة إلى المعركة الكبرى، وذلك عبر التجاوب مع خصومتها التي لا تهدأ ضد العدوين القديمين على حد سواء؟ هذه الأسئلة، الجارحة بعض الشيء، تدور في أذهان كثيرين قد لا يرغبون في طرحها، أو أنها لم تتبلور بعد في نظراتهم النقدية، وفي تصوراتهم لمهام ومستقبل التيار، وكل ما يفعله المرء، في هذه الحالة، إنما هو إعادة طرحها في إطار دراسي جديد، لا غرض له بكل يقين سوى المساهمة في تقديم مقاربة إضافية أكثر تطلبا. كانت خصومة الصدريين مع المؤسسة الدينية (الديكتاتورية) ومع النظام الديكتاتوري ـ حسب تعبيراتهم ـ ذات طابع جذري لا يني يتجذر أكثر فأكثر، في تربة نزاع مستتر ضد قوى الطرد والتهميش في المجتمع؛ فكما أن المؤسسة الدينية من وجهة نظر الصدريين كانت مؤسسة طاردة، وذات نزوع متأصل لتهميشهم وإبعادهم وحرمانهم حتى من حق الاستفادة من المال الشيعي؛ وهو مال متراكم تقدره كثير من المصادر المستقلة بمليارات الدولارات3؛ فإن الدولة ـ على الطرف الآخر من النزاع ـ كانت قوة إقصاء وتهميش مواز من وجهة نظرهم، لأنها حرمتهم أيضا من فرص المشاركة السياسية ومن الثروة الهائلة وحكمت عليهم بالبقاء إلى الأبد داخل أحزمة الفقر المحيطة ببغداد وبعض محافظات الجنوب. لم يكن بوسع الصدر الابن تجاهل هذه الحقائق، التي تخص وفي الصميم طبيعة القوى والطبقات والفئات الاجتماعية التي تشكل منها تياره، كما لم يكن بوسعه في أي وقت، التقليل من حدة الغضب الذي كان يعتمل في نفوس القسم الأكبر من القوى والطبقات والفئات الاجتماعية المحرومة، التي ظلت قابعة – دون أمل في التغيير ـ في أسفل السلم الاجتماعي عندما وقع الغزو . ولذلك؛ يبدو مفهوما أن الصدر الابن، بدا في حالات غير نادرة، منساقا خلف جمهور متزايد لا يلبث أن يقود نفسه بنفسه وخارج كل سيطرة تقريبا على سلوكه، لا من جانب القادة المباشرين في الميدان ولا من جانب قادته الدينيين. ثمة دليل صارخ على افتقاد السيطرة، وعلى الطابع المتناقض لاستراتيجية التيار الصدري في مقاومة الاحتلال الأمريكي، فعدد البعثيين الذين سقطوا برصاص أعضاء هذا التيار، منذ التاسع من نيسان (إبريل) 2003 حتى شهري آب (اغسطس) وأيلول (سبتمبر)، بلغ حسب إحصائية خاصة4 تمكن المؤلف من الحصول عليها وقام بتدقيق معطياتها؛ نحو 850 شخصا سقطوا صرعى رصاص الصدريين في مدينة الصدر وحدها، ونحو 316 آخرين في البصرة (جنوب العراق). بينما حصدت عمليات مقاومة الاحتلال التي قام بها الصدريون ضد القوات الأمريكية والبريطانية، وهي أعمال بطولية وشجاعة بكل تأكيد، أقل بكثير من هذه الأرقام. هذه الإشكالية التي تصدر عن تلازم استراتيجيتين متناقضتين ضد الاحتلال الأمريكي وضد البعث في آن واحد؛ مصدرها الطبيعة المعقدة والمتناقضة للتراكب في القوى المؤلفة للتيار، والتي توافقت على مهام ووظائف كان يصعب التوافق عليها أو تحديدها تحديدا دقيقا.إن الخلط بين الوظائف والمهمات، والدمج القسري وغير المبرر لصور الخصوم السياسيين بصور الأعداء من جانب، والعجز عن رؤية الطابع التحرري للثورة الشعبية ضد الاحتلال، ساهمت جميعا في خلق نمط من التوترات داخل التيار نفسه، الذي كان يجد نفسه وفي كل يوم، وكأنه أضحى عرضة للتمزق الوجداني والسياسي، وقد يجد نفسه، تاليا ، في قلب إعصار الانقسام والانشقاق.

مقاربة ثانية

في وقت ما، وبكل يقين ليس الآن؛ بل بعد عقود من زوال الاحتلال ورحيل الأمريكيين عن العراق، سوف يتوقف دارسو التاريخ، وبالطبع المؤرخون وعلماء الاجتماع والباحثون، طويلا وبلا تردد أمام أكثر ظاهرات الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في تاريخ العراق المعاصر، إثارة للدهشة وللأسئلة المحيرة وذات الطابع السجالي، المفجر للشكوك والظنون والتفسيرات حتى غير المترابطة منها، نعني ظاهرة التيار السياسي المرتبط باسم الشيخ مقتدى الصدر، والذي تلازم صعود أدواره في الحياة العامة واليومية للعراقيين مع وقوع أكبر حدث هلعي في تاريخ العرب، منذ سقوط الخلافة العباسية في قبضة المغول عام 1258، وحروب الفرنجة (ما يدعى الحروب الصليبية) ثم ضياع فلسطين في عام 1948 وحتى اليوم. كان الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني للعراق وسقوط بغداد في التاسع من نيسان (إبريل) 2003، من منظور الأحداث الهلعية في تاريخ العرب والعراقيين، وبحق، هو الحدث الهلعي الأكبر؛ إذ لم يحدث أن تشقق بلد، طولا وعرضا، أو بكلام آخر، تمزق نسيجه الاجتماعي ومحيت كل مظاهر الدولة فيه، كما انعدمت تقريبا ملامح وجود هوية وطنية جامعة أو مجتمع موحد، مثلما حدث مع العراق المعاصر الذي يحلو للأمريكيين تسميته (بالعراق الجديد).

إن مؤرخا حصيفا تغمر عينيه دموع الأسى و يعتصر الألم قلبه وهو يقلب صفحات مثقلة بالأحداث المأسوية من تاريخ الاحتلال الأمريكي الرهيب حيث يمتلئ كل سطر من سطور هذا التاريخ الفجائعي بأخبار وصور الجثث المجهولة الرمية في قارعة الطريق أو في الأنهار والسواقي، أو بصور القتلى مكبلي الأيدي ومعصوبي الأعين وقد أطلق الرصاص عليها من الخلف ـ سوف يجد نفسه وقد وقف متسائلا بمرارة عما إذا كانت الأقدار وحدها، وليس الطموح الشخصي أو الأهواء الدفينة، هي التي دفعت إلى واجهة الأحداث الدامية بذلك الشاب صغير السن، والذي لم يشبع طموح مناصريه ومؤيديه بارتفاع منزلته وبمكانته على مستوى العلم الشرعي، أي الديني، وبكل ما يتضمنه هذا السمو من قدرة وأحقية في الإفتاء بأمور الدين والدنيا، وفوق ذلك تنقصه الخبرة السياسية؛ ليلعب بالنيابة عنهم وعن قطاع عريض من المجتمع العراقي دور البطل أو المخلص؟ وعما إذا كان وجوده في تلك الساعات العصيبة من التاريخ في قلب ميدان ملتهب، دليلا من بين أدلة أخرى على أن الأبطال الحقيقيين يولدون سوية، مع أبطال مزيفين لا حصر لهم، وأن شطرا من القدر المرسوم لحياتهم هو أن يظلوا يقظين ومستعدين على الدوام لمصارعة هؤلاء ودحرهم؛ بل وأن يواصلوا تقديم أنفسهم كأبطال جديرين بالإعجاب والمحبة والتأييد، فوق خشبة مسرح يعج بأشباه الرجال وبالأدعياء وحتى بالمجرمين والقتلة؟

ثمة صورة أخرى، لم يجرب أحد بعد إمعان النظر فيها بقدر نزيه من الحيادية، تخص الشيخ مقتدى الصدر ـ زعيم ما بات يُعرف اليوم في العالم كله بالتيار الصدري ـ وتبدو مشبعة بنمط غريب من المفارقات الساخرة، التي لا تكاد تفارق مخيلة الخصوم والمناصرين على حد سواء حتى هذه اللحظة. إنها صورة شاب اقترن ظهوره الأول، وسطوع نجمه في الحياة السياسية، بكونه رجل دين صغير وحسب لا يملك من قوة التمثيل الديني إلا النزر اليسير، بينما اقترن ـ على العكس من ذلك ـ ظهوره في الحياة الدينية بكونه رجل سياسة قليل الخبرة وحسب، لا يملك من فنونها سوى أقل القليل أيضا. منذ الأيام الأولى للاحتلال، سطع نجم الشيخ كرمز جديد من رموز الوطنية العراقية، التي بدا أنها كانت أمام امتحان عسير قد يجلب المهانة للشعب بأسره ، وذلك مع شيوع أعمال النهب والسلب والقتل العشوائي والتصفيات العبثية واللامبالاة إزاء الحدث الهلعي؛ حيث تُركت البلاد تحت رحمة الصدمة والذهول تصارع قدرها المجهول. لقد قيض لصورة الشيخ هذه أن تصعد ـ في مخيلة وهتافات مناصريه ـ كصورة منمقة لزعيم سيجمع بين يديه، وبفضل مكانة أسرته دينيا واجتماعيا في الوسط الديني، شرعيتين متلازمتين مع ذلك:

الشرعية الأولى

تمثيلية، أو ذات طابع تمثيلي بدرجة ما في نطاق الدين، وإنْ كانت من حيث درجة قوتها الساطعة، أقل تجسيدا لمبدأ الكفاية في العلم الشرعي . بكلام آخر هي شرعية يشوبها عيب شديد الأذى بالنسبة للقائد الديني، نعني النقص الفادح في المكانة العلمية ـ الدينية ودرجة الأعلمية. وهذا التعبير الشيعي الخاص والدقيق والذي نجده في كتب الفقه، هو التعبير الأكثر تجسيدا لفكرة أن درجة العلم الشرعي وحدها، وليس أي شيء آخر، ستلعب في النهاية الدور الحاسم في تقرير منزلة الفرد في عالم القيادة الدينية للجماهير، وهي وحدها التي تؤهل الفرد للعب دور الفقيه والمفتي في عالم المرجعيات الشيعية الصارم.

الشرعية الثانية

هي شرعية الدور السياسي في لحظة وطنية تاريخية نادرة، والتي يتمكن فيها فرد، وبصرف النظر عن تجربته وماضيه، من تعريف نفسه كقائد جديد في مسرح بدا أنه يخلو من القادة. هذه الشرعية التي امتلكها الصدر (الثالث من حيث ترتيبه داخل الأسرة الصدرية) امتازت، مع ذلك، بالقدر ذاته من النقص الفادح الذي لازم شرعيته الدينية؛ كفاية أقل في العلم أيضا، وهذه المرة في علم السياسة وفنونها.

بيد أن الصدر انتزع، مع ذلك، هاتين الشرعيتين المتلازمتين بسرعة مذهلة وذكاء؛ من قلب شرعية أخرى أكبر وأقوى، كانت تتشكل في سماء الأحداث الدامية المتسارعة من حوله، شرعية مقاومة الاحتلال. ففي الشارع العراقي المتفجر بالغضب، المشوش والمذعور من جسامة الحدث الهلعي الرهيب، التف الملايين من الشباب الفقراء في كل مكان من حول الشيخ مقتدى الصدر، مخاطبين فيه قدره الشخصي لا علمه القليل في الدين والفقه، ومصيره كإنسان لا تجربته السياسية الفتية. كانت الجماهير الشبابية الشيعية في مدينة الثورة (أو مدينة صدام التي أصبح اسمها مدينة الصدر) وفي أحزمة الفقر المنتشرة في الجنوب والفرات الأوسط وفي النجف تحديدا، تخاطب في الشيخ أطيافه التي تلوح في الأفق وتدعوه إلى أن يقودها في معركة لا يُعرف، بالضبط، كيف ومتى وإلى أين ستنتهي؟ لقد كان شطر هائل من أبناء الشيعة في قلب لحظة خصام وتزاحم وتناقض مع أخوة لهم في المذهب؛ وكان هؤلاء يوجهون بعضا من مشاعر الغضب صوب المرجعية التقليدية في النجف وصوب أحزاب شيعية ومليشيات اندفعت مع المحتلين لتستولي على الحكم، لا لشيء إلا لأن تعاون (بعض الشيعة) مع المحتلين كان يضرب في الصميم معتقدا راسخا من معتقداتهم عن التاريخ النضالي للشيعة: العداء للاستعمار. ولذلك؛ وبسبب هذا التشابك المأسوي، وجد الصدر الثالث نفسه وقد تقاذفته موجة جماهيرية عاتية كانت تحارب بضراوة على جبهتين: جبهة مفتوحة للتو ضد المرجعية التقليدية (التي أطلق عليها منذ الآن اسم بالحوزة الصامتة تهكما وسخرية) وتم فيها ضم أعداء أو خصوم دينيين جدد (مع دخول باقر الحكيم في المجمع الفقهي بوصفه خامس الكبار في الحوزة) وجبهة موازية ضد الاحتلال الأمريكي من خلال التظاهرات الحاشدة وكل أشكال الاحتجاج المبتكرة.

وفي إطار هذه الاستراتيجية جرى دمج قسري للصراع مع البعث، وبحيث اختلط القتال ضد الأمريكيين بوقوع تصفيات إجرامية ضد البعثيين من دون توقف.

على هذا النحو جمع الصدر الثالث بين يديه سلاحين ثقيلين، بدا أن طاقته الفعلية ومهاراته العملية على استخدامهما بكفاءة وفي آن واحد؛ إنما يتطلب ظروفا أخرى وأدوات أخرى وربما أبطالا آخرين لم تلدهم الحياة بعد. كان الصراع المبكر الذي خاضه الصدر ضد مرجعية آية الله السيستاني في النجف، بعد أيام فقط من الاحتلال، مماثلا من حيث المظهر الخارجي، للصراع الذي خاضه من قبل آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي ضد آية الله العظمى والمرجع الأعلى للشيعة كاظم اليزدي، عندما كان الأول في معقله بسامراء ـ نصف الشيعية ـ يكابد من أجل منع انزلاق شطر من الشيعة إلى التعاون مع المحتلين البريطانيين مع سقوط بغداد في 11 آذار (مارس) 1917. فماذا لو أن الأقدار جعلت من مقتدى الصدر الشاب، رجلا كهلا ـ في اللحظة التي استولى فيها الأمريكيون على بغداد ـ وكان لديه بدلا من لقب الشيخ، كفاية في العلم الشرعي تؤهله للحصول على لقب آخر مثلا: آية الله أو حجة الإسلام؟ هل كان صراعه ضد المرجعية السيستانية سيتخذ، آنئذ، مسارا آخر شبيها بالمسار الذي قاد الشيرازي ليصبح ألمع قادة الثورة ضد الإنكليز ثم المرجع الأعلى للشيعة؟ من هذه الناحية لا ينبغي التقليل من قيمة التساؤل، إذ أن الصراع من الخارج ضد المؤسسة الدينية التقليدية، كان يرتبط تاريخيا، بوجود شرعية دينية موازية ومنافسة في الداخل. وبطبيعة الحال فقد استمد الشيرازي جزءاً من شرعية صراعه الداخلي ضد اليزدي، لا من كونه أحد الطامحين ـ من خارج المؤسسة الدينية ـ بل من حقيقة وجوده كمرجع ديني كبير خارج المجمع اللاهوتي. أما على جبهة السياسة المحتدمة والمتفجرة، فقد وجد الصدر نفسه في مواجهة مكشوفة مع الاحتلال، وكان عليه، لأجل المضي قدما في الصراع ضد المؤسسة الدينية التقليدية وضد الاحتلال معا، أن يفتش من داخل هذه الموجة الجماهيرية العاتية التي أخذت تتقاذفه بالفعل، وربما تقوده بدلا من أن يقودها، عن قوى جديدة تصلح للاشتباك العسكري الميداني ضد العدوين.

ولذا سارع إلى الإعلان عن بناء جيش المهدي والشروع به عمليا في منتصف تشرين الثاني (فبراير) 2003، بينما كانت صحيفته التي أخذت اسم الحوزة الناطقة ، إمعانا في معاداة مرجعية النجف والتنازع معها على الشرعية ودرجة تمثيل الشيعة في هذه اللحظة من التاريخ؛ تصدح بأناشيد القدح والذم بحق رجال الدين الخونة5 والمعممين المزيفين. من هذه الناحية أيضا وجد الصدر الثالث نفسه وقد تشبه بالميرزا الشيرازي، حين توجه إلى طلب معونة العشائر في الجنوب من أجل المعركة ضد الاحتلال؛ ولكنه بدلا من التوجه إلى رؤساء العشائر وشيوخها ويكتب إليهم طالبا المدد ـ كما فعل الشيرازي ـ اتجه بكل ثقله صوب الشباب ـ في هذه العشائر ـ الذين انضموا إليه بسرعة وأعداد هائلة. ومع هذا كله تبدو محنة الصدر الثالث (الشيخ مقتدى بن محمد صادق الصدر) أكبر بكثير من محنة أبيه وعمه،6 مصدر هذه المحنة وأساسها، أن الشيخ وجد نفسه أسير مهمة متراكبة ومعقدة لا يملك مفاتيح الفكاك منها، ولنقل أمام معركة مزدوجة فرضتها الأقدار: ضد الاحتلال وضد المرجعية الشيعية التقليدية (المؤسسة الدينية الديكتاتورية) في الآن ذاته.

وكما أن المؤرخ الحصيف الذي يدرس تجربة التيار الصدري مستقبلا، سيقف حائرا ومشوشا ربما أمام الطبيعة المعقدة في تركيبة التيار ومهامه ووظائفه، فإن المرء ليشعر اليوم ـ كما هو الحال مع الكثير من المراقبين في العالم العربي وفي الغرب كذلك ـ بالحيرة نفسها إزاء الطريقة التي يتوجب فيها رؤية الدور الذي لعبه.

هوامش:

1. حشد الصدر الثاني من حوله أنصارا لا عد لهم ، وخاض ضد المرجعية في النجف نضالا ضاريا ، وكانت لديه الإمكانية باستمرار لخلق موضوعات للصراع ، مثلا فتواه بإقامة صلاة الجمعة التي ظلت النجف ترفضها ولا تقيمها جماعيا، أو إباحة التدخين للصائم، أو إشهار تحديه للسلطة من خلال ارتداء الكفن أثناء الخطب.
2. أنظر مطالع البحث، المصدر مذكور.
3. لا تزال أموال المرجعية التي وقعت في أيدي أبناء أبو القاسم الخوئي (المرجع الأعلى للشيعة حتى عام 1992) موضوعا مثيرا للنقد والشبهات. وتتحدث كثرة من المصادر عن مليارات الدولارات التي استثمرت في مؤسسات خيرية يذهب ريعها بالكامل إلى أسرة الخوئي. ولعل قصة استيلاء احد أبناء الخوئي (السيد مجيد الخوئي الذي قتله الصدريون حسب بعض المزاعم داخل ضريح الإمام علي بن أبي طالب بعد ساعات من دخول الدبابات الأمريكية على النجف في السادس من نيسان ـ ابريل) تشير بدقة مذهلة إلى المعنى الفعلي لكلمة حرمان أو تهميش، فبدلا من مؤسسات لرعاية الفقراء طارت الأموال إلى البنوك الأجنبية (لندن بشكل خاص) حيث استثمرت هناك في مشاريع شخصية تفوح منها رائحة الفساد المالي..
4. إحصائية خاصة حصل عليها الكاتب من مصادر متطابقة ويحتفظ بصورة منها تتضمن أسماء الشهداء ومدنهم وبلداتهم.
5. وجه الصدر الثالث (مقتدى) اتهامات قاسية للكثير من رجال الدين المساهمين في الغزو، وكانت شجاعته، وقدرته على توظيف النقد اللاذع، محط اهتمام وإعجاب حتى خصومه.
6. كان آية الله العظمى محمد باقر الصدر (عم الشيخ مقتدى) فيلسوفا ومؤسسا لحزب الدعوة، وكانت محنته، في أيامه الأخيرة خصوصا، تتمثل في شعوره بأنه بات محاصرا من المؤسسة الدينية وحزبها الذي أسسه ومن السلطة في آن واحد، ولذا وجد